الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية
فى مصر المملوكية

للدكتور أحمد السيد دراج

أفاض المقريزى في كتابه « إغاثة الأمّة بكشف الغمّة » في شرح أسباب الضائقة الاقتصادية الكبرى التى ألمت بمصر في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى . فقد شهدت مصر في الفترة الممتدة من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٩ هـ مجاعة متقطعة صحبها انتشار الوباء ، الذى مات فيه ألوف مؤلفة من المصريين في السنوات الأخيرة منها ؛ أى منذ سنة ٨٠٦ هـ .

وفضلاً عن هذا السبب الذى أشار إليه المقريزى ، والذى كان سبب كتابته هذه الرسالة القصيرة ، فإن هذه الضائقة الاقتصادية ترجع — في رأيه — إلى ثلاثة أسباب لارابع لها ، وهى :

السبب الأول — وهو أصل هذا الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لايمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل .

السبب الثاني — غلاء إيجار الأطيان الزراعية .

السبب الثالث — رواج الفلوس النحاسية[1] .

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٤١ وما يليها (فصل فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن ...) .

— نبتت فكرة كتابة هذا البحث عن « الحسبة » بعد قرائة مقال للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده عنوانه : « دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى » ؛ وهذا المقال منشور فى الكتاب الذى أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والذى يحتوى على الكلمات والدراسات التى ألقيت فى الحلقة الدراسية الأولى « للتاريخ والآثار » التى أقيمت تحت اشراف المجلس فى المدة من ٤ — ٩ فبراير سنة ١٩٦١ . فهذه « الدراسات » تدور حول كتاب « اغاثة الأمة » للمقريزى ، وانى لأرجو أن

والمقريزى ، في شرحه للسبب الأول ، لم ينتقل من التعميم إلى التفصيل ، وإنما اكتفى بتبرير وجهة نظره العامة وإبراز النتائج العامة التى تترتب على تولية الوظائف بالرشوة . ففى هذا الصدد يقول :

(فتخطّى لأجل ذلك كل جاهلٍ ومفسدٍ وظالمٍ وباغٍ إلى ما لم يكن يؤمّله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة . . . . . ويحتاج إلى أن يقرّر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجّل منهم أموالاً ، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لايعفّون ولا يكفّون ، ثم ينساق البائس في جمع الأموال التى استدانها إذا أتته استدعاءات من الأمراء وحواشى السلطان . . . . . ولايشعر مع ذلك إلا وغيره قد تقلّد ذلك العمل بمال التزم به ، وقد بقيت عليه جملة من الديون ، فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره ويَشْخَصُ في أبخس حال ، وقد أُحيط كما ذكرنا بماله ، ويعاقب العقوبات المؤلمة ، فلا يجد بداً من الالتزام بمال آخر ، ليقلّد العمل الأول أو غيره من الأعمال.[١])

ونحن في دراستنا لوظيفة الحسبة نحاول أن نضع رأى المقريزى موضع التطبيق ، لا لنثبت صحته ، وإنما لتتضح لنا الآثار التى ترتبت على تولى الوظائف العامة بالسعى والبذل ، ونتائج ذلك على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية منذ مطلع القرن التاسع الهجرى .

فوظيفة الحسبة يأتي ترتيبها في المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية[٢] ، إلا أنها تعتبر أخطر الوظائف الديوانية والوظائف الدينية في مصر المملوكية

= أكون قد أسهمت بهذا البحث عن « الحسبة » فى ابراز قيمة هذا الكتيب فى ميدان الدراسات الاقتصادية الخاصة بمصر الاسلامية ، وفى ايضاح بعض جوانب الحياة الاقتصادية فى هذه الفترة من تاريخ مصر .

— هذا ومن المفيد أن نذكر أن الأستاذ WIET ترجم الى اللغة الفرنسية كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » وصدرت الترجمة بعنوان :

Le traité des famines de Maqrizi.

ونشرت فى : Journal of the Economic and Social history of the Orient, vol. V part I, Febr. 1962.

(١) اغاثة الأمة ، ص ٤٣ — ٤٥

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الرابع ، ص ٣٧

نظراً لارتباطها أكثر من غيرها بحياة الناس اليومية ؛ عامتهم وتجارهم وصناعهم والمتسبّبة لقوت يومها . ومن ثمّ فإن توليها — على النحو الذى أشار إليه المقريزى — كانت له آثار بعيدة المدى على حياة البلاد الاقتصادية .

فالحسبة عند فقهاء المسلمين هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن هذا المفهوم العام يباشر المحتسب اختصاصاته وهى المحافظة على الآداب العامة والإشراف على الأسواق ودور الضرب ، وعلى أصحاب الحرف والصنائع[١]. غير أننا سنرى في هذه الدراسة كيف أصبحت الحسبة معولاً هدّاماً في يد المحتسبين الذين تولوها بالسعى والبذل .

ويتضح مدى هذا الدور المخرِّب لوظيفة الحسبة — في حياة البلاد الاقتصادية — إذا ما عرفنا مدى اتساع سلطة المحتسب . فمتولى حسبة القاهرة كان له نواب بالقاهرة والوجه البحرى إلى قطيا وبرقه ؛ خلا ثغر الاسكندرية فإن متولى الحسبة بها كان السلطان هو الذى يصدر قرار تعيينه ، ثم أضيفت فيما بعد إلى نائبها . وأما متولى حسبة مصر (الفسطاط) فله الأمر والاستنابة بقلعة الجبل والصليبة إلى قناطر السباع والعراقيين والوجه القبلى بكماله ؛ وربما أضيفت حسبة مصر إلى حسبة القاهرة[٢] .

* * *

والحسبة فسد أمرها منذ أمد طويل سابق على زمن المقريزى . فالماوردى ، المتوفي سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، يتحدث عن الحسبة في هذه الكلمات .

---

(١) عن الحسبة انظر :
— الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشر الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ٦
— العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٢٤
— حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الثالث ، ص ١٠٢٧ وما يليها .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ٣٧ ، جزء ١١ ص ٤١٤
— الخالدى : المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١٣٢ ا .

(والحسبة من قواعد الأمور الدينية ، وقد كان أئمّة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها ، ولكن لما أعرض عنها السلطان وندب لها من هان ، وصارت عرضة للتكسّب وقبول الرشا ، لأن أمرها وهان على الناس نظرها ، وليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها.[١])

وإذا ما إنتقلنا إلى مصر — وعلى وجه التخصيص — مصر المملوكية فإننا نجد المصادر تمدنا بالشيء الكثير عن الحسبة وعن الدور الهدّام الذى كان يقوم به المحتسب في حياة البلاد الاقتصادية . وفي هذا المعنى يعبر أحد شيوخ القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر الميلادى عما آل إليه أمر الحسبة في هذه الكلمات :

(وأما أمر الحسبة فاعلموا — رحمكم الله — أن أمرها قد فسد ، واستحكم فساده ، وكثر الطمع في أموال الناس بسببها ، وقد بقيت سيئة فلا يحل للسلطان أن يوليها أحداً ولا حاجة للناس بها .[٢])

ولكن على الرغم من وضوح الدلالة — من هذه النصوص السابقة — على فساد أمر الحسبة ، إلا أن هذا الفساد كان يمكن تداركه لولا ما انتهى إليه أمرها من انحلال تام في أوائل القرن التاسع الهجرى . وذلك أن ارتباط وظيفة الحسبة بالحياة الاقتصادية جعلها أكثر الوظائف تأثراً بحالة التدهور الاقتصادى الذى بدأت مصر تعاني من آثاره منذ الخمسينات من القرن الثامن الهجرى ، وما حدث بعد ذلك من مضاعفات عديدة في بداية القرن التالى دفعت بالبلاد ، وظلت تدفعها طوال ذلك القرن ، إلى حالة الانهيار الاقتصادى التام .

وليس هناك من دليل أبلغ في وصف حالة البلاد الإقتصادية من أن أضع أمام القارىء قائمة بما تعرضت له البلاد من قحط وجدب ومجاعات وأوبئة خلال هذه الفترة الزمنية التى تبلغ قرناً ونصف . ولا يخفى علينا جميعاً

---

(١) الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٢٩٨ هـ ، ص ٢٤٥

(٢) ابن عزّ (ابراهيم بن على الطرسوسى) : تحفة الترك فى ما يجب أن يعمل فى الملك ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٢٤٤٥ ، ورقة ٣٧

أن النيل واهب الحياة في مصر ، وأن جميع مظاهر النشاط البشرى كانت تتأثر بمدى ما يجود به الله علينا من مياه الفيضان . فإلى القارىء هذه القائمة :

— ١٣٣٨/٧٣٩ — ١٣٣٩ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء .

— ١٣٣٩/٧٤٠ — ١٣٤٠ : جدب وغلاء شديد .

— ٧٤٧ — ١٣٤٦/٧٤٩ — ١٣٤٨ : الوباء الكبير (الوباء الأسود) .

— ١٣٥٠/٧٥١ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٣٥٣/٧٥٤ : وباء .

— ١٣٦٣/٧٦٤ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ٧٧٥ — ١٣٧٣/٧٧٧ — ١٣٧٥ : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباء[١]

— ١٣٨١/٧٨٣ : وباء .

— ٧٩٦ — ١٣٩٣/٨٠١—١٣٩٨ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاءشديد [٢]

— ٨٠٦ — ١٤٠٣/٨٠٩—١٤٠٧[٣] : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباءوفناءكبير

— ٨١٨ — ١٤١٥/٨١٩ — ١٤١٦ : وباء .

— ١٤١٩/٨٢٣—١٤٢٠ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد ؛ وباء .

— ١٤٢٧/٨٣٠ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٢٩/٨٣٢ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٣٠/٨٣٣ : وباء .

---

(١) اغاثة الأمة : ص ٤١ — ٤٣ (لم يرد ذكر هذا الفيضان المنخفض وما ترتب عليه فى هذه القائمة التى ننقلها عن ڤيت WIET — انظر فيما بعد) .

(٢) اغاثة الأمة : ص ٤٠ — ٤١ (أعقب هذه المجاعة وباء) .

(٣) اغاثة الأمة ، ص ٤٢ — ٤٣ (تحدث المقريزى عن هذه المجاعة وما صحبها من وباء حتىأوائل سنة٨٠٨هـ ، وهى الفترة التى كتب فيهاكتابه المذكور — تحدث المقريزى ، قبل حديثه عما حدث فى سنة ٨٠٨ هـ ، عما حدث من غلاء شديد فى عهد السلطان كتبغا سنة ٦٩٦ هـ ، وفى عهد الناصر محمد سنة ٧٣٦ هـ ، وفى عهد الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ هـ — انظر الكتاب المذكور ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ٣٩ — ٤٠) .

— ٨٤١ — ١٤٣٧/٨٤٢ — ١٤٣٨ : وباء .

— ١٤٤٥/٨٤٩ : وباء .

— ١٤٤٩/٨٥٣ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٥٢/٨٥٦ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٥٩/٨٦٣ : وباء .

— ١٤٦٨/٨٧٣—١٤٦٩ : فيضان منخفض ؛ جدب وغلاء شديد .

— ١٤٧٦/٨٨١ — ١٤٧٧ : وباء .

— ١٤٨٧/٨٩٢ : جدب وغلاء شديد[١] .

ويتضح من هذه القائمة أن انخفاض النيل ، وما ترتب عليه من جدب وغلاء شديد أحياناً ، ومجاعة ووباء أحياناً أخرى ، قد تكرر حدوثه في القرن التاسع أكثر من القرن الثامن . كما يتضح منها أن هذه الظاهرة قد تكرر حدوثها في فترات متقاربة خلال النصف الأول من القرن التاسع ، وترتب عليها أضرار كثيرة حاقت بالبلاد . ففضلاً عن الغلاء الشديد والمجاعة فقد تعرضت البلاد في هذه الفترة للوباء ست مرات .

وبالإضافة إلى هذه الكوارث الطبيعية ، فقد حلّت بمصر والشام في مطلع القرن التاسع محن وأحداث أخرى دفعت بهما إلى حالة التدهور الإقتصادى . فبلاد الشام تعرضت لغزو تيمورلنك وما صحبه من آثار مخرِّبة ، وتبع ذلك تهديد مصر بالغزو . وإقتضى الأمر الإستعداد والتأهب لملاقاة تيمورلنك ، فلجأت السلطات إلى وسائل غير عادية لجمع الأموال من مختلف فئات الشعب . غير أن هذه الوسائل اقترنت بالمبالغة والشدة والعنف ، بل اتسمت بطابع السلب والنهب ، حتى أن المعاصرين يقارنون ما حل بالمصريين—في هذا الصدد — بما حل بأهل الشام على يد تيمورلنك[٢] .

---

(١) هذه القائمة نقلا عن :

WIET et HAUTECOEUR : Les Mosquées du Caire, I, p. 82.

(٢) المقريزى : السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٨ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب — ٢٨ ب .

— العينى : عقد الجمان ، المخطوطة رقم ١٥٤٤ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ١٤٣ أ .
=

وكما يحدث عادةً في بداية عهد كل سلطان من أبناء السلاطين السابقين، فقد شهد عهد الناصر فرج منذ بدايته حركات التآمر والعصيان من جانب كبار الأمراء، استنكاراً منهم لمبدأ توريث عرش السلطنة. كما أغراهم صغرسنه، وقت أن تولى السلطنة، على الإصرار على التخلص منه؛ هذا فضلاً عن أن ما عُرف به هذا السلطان من تعطّش لسفك الدماء جعل عهده كله يمتلىء بالإضطرابات الدموية. ويكفى للتدليل على الطابع الدموى لهذه الفترة، ما يذكره المؤرخون من أنه في سنة واحدة قتل ستمائة وعشرين أميراً من هؤلاء الأمراء المعارضين له[١]، وأنه خرج على رأس ثمان تجريدات عسكرية إلى الشام لقمع عصيان الأمراء الخارجين عليه، وأن كل تجريدة تكلفت ما يزيد عن مليون دينار جمعت من أفراد الشعب عن طريق المصادرات. وموجز القول، فإن الناصر فرج — كما يصفه لنا المقريزى — كان أشأم ملوك الإسلام، وأنه خرّب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر والشام[٢].

ويطول بنا القول إذا ما تتبعنا أسباب هذه الأزمة الإقتصادية الحادة ومظاهرها المختلفة. ويكفينا — في هذا الصدد — أن نذكر أن هذه المضاعفات العديدة التى صاحبت هذه الكوارث الطبيعية التى تعرضت لها البلاد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع قد جعلت من المتعذّر التغلب على هذه الأزمة الإقتصادية الحادة، فظلت تخيّم على البلاد طوال بقية عصر المماليك.

والمتتبع لتطور وظيفة الحسبة منذ بداية القرن التاسع يلاحظ أن انهيارها جاء نتيجة لثلاثة أسباب مباشرة، وهى :

= ابن حجر : انباء الغمر، المخطوطة رقم ١٦٠١ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة ١٧١ ب، ١٧٣ ب.
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، طبعة كاليفورنيا، الجزء السادس، ص ٤٧، ٦٩ — ٧٢

(١) WIET et HAUTECOEUR : Op. cit., I, p. 81.
WIET : L'Egypte arabe, pp. 521-524.

(٢) — السلوك، المخطوطة السابقة، ورقة ١٠٢ ا، ب.
— النجوم الزاهرة، الجزء السادس، ص ٢٥٧
WIET : L'Egypte arabe, pp. 534-540.

١ — تدخل كبار الأمراء ، أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة ، في تولية أعوانهم في هذه الوظيفة خدمةً لمصالحهم ؛ ومن المعروف أن السلطان والأمراء كانوا يشتغلون بالمتجر .

٢ — أن الأمر لم يقتصر على تولى هذه الوظيفة بالرشوة وبالبراطيل[١]، وإنما استقر الحال على توليها — حسب مصطلح العصر — عن طريق « البذل » ؛ أى شراء الوظيفة بمبلغ من المال يدفع مقدماً ، مع تعهد من يحصل عليها بأن يدفع للسلطان مبلغاً من المال مشاهرةً . وهذا أدى إلى كثرة الطامعين في هذه الوظيفة ، وإلى المزايدة فيما بينهم . وبالتالى لم يعد الأمر بالنسبة للمحتسب مجرد تناول رشوة مقنّعة أو خفية ، وإنما اتخذ صورة فرض مقرّرات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع .

٣ — لم يعد تولى هذه الوظيفة الدينية قاصراً على الفقهاء والمتعممين ، وإنما تعداها — منذ عهد السلطان المؤيّد شيخ — إلى الأمراء أصحاب السيوف ، ثم اقتصرت أخيراً عليهم . وعلى أيدى هؤلاء الأمراء انتهى أمر الحسبة .

* * *

فأمّا السبب الأول ، من هذه الأسباب ، فمن اليسير تتبعه في مصادر مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع ؛ وعلى رأس هؤلاء المقريزى ، والعينى ، وابن حجر . فالثلاثة كانت تسيطر على قلوبهم عوامل الحسد والغيرة التى تطورت إلى عداء واضح صريح ، وذلك بسبب التنافس على تولى الوظائف الدينية الكبرى في الدولة المملوكية . فالمقريزى والعينى فرّق بينهما التنافس على تولى وظيفة الحسبة ، وأدى ذلك إلى اعتزال المقريزى لهذه الوظيفة وللحياة العامة كلها . والعينى وابن حجر تنافسا في طلب الحظوة لدى السلاطين ، وفي ميدان التأليف [٢] .

---

(١) البراطيل هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها ، وكان أول من تناولها — فى الدولة المملوكية — الأمير شيخون ، ثم أفحش فى تناولها الظاهر برقوق — انظر : الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١١١ ؛ طبعة WIET ، الجزء الثانى ، ص ١١٠ .

(٢) انظر : الدكتور زياده ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٩ — ٢١

ففى ٧ ذى الحجة سنة ٨٠١ استقر العينى في وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى بدلاً من المقريزى . ويعلّق المقريزى على ذلك بقوله أنه بعد رجوع العينى من بلاده تردد إلى الأمراء ، فسعى له بعضهم ، وهو الأمير جكم ، فلم تتم معه سوى بقية الشهر[١] .

وفي ٢ محرم سنة ٨٠٢ صُرف العينى من الحسبة ، واستقر فيها جمال الدين محمد بن عمر الطنبدى ، وكان القائم في ذلك دويدار الأمير ايتمش ، القائم بأمر الناصر فرج[٢] .

وفي ١٤ ربيع الآخر ، من نفس العام ، أُعيد العينى إلى وظيفة الحسبة[٣].

وفي ٨ جمادى الأول[٤] ، أو في ١٦ منه ، أُعيد المقريزى إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العينى . ولنترك العينى يروى لنا أسباب صرفه منها ؛ ففى هذا الصد يقول ، « في يوم الخميس ، ١٦ منه (جمادى الأول) عزل صاحب التاريخ نفسه عن حسبة القاهرة ، وذلك أن سودون الدوادار ، لما استقر في الدوادارية احتاط على موجود ايتمش الذى كان قائماً بأمر الناصر فرج ثم قُتل ؛ ومن جملة ما وُجد له في شونته ستة آلاف أردب قمحاً وألفى أردب حمصاً ، وألف أردب فول . وكان أردب القمح إذ ذاك يساوى خمسة وثلاثين درهماً ، فطلبنى المذكور وقال لى : بع هذا القمح الأردب بستين درهماً . فقلت له : العادة في هذا أن يُباع بقطع السعر من أرباب الجيزة . فلما سمع منى هذا الكلام اختبط خبط اللئام ، وركبه ظلام

---

(١) ـ السلوك ، ورقة ١٠ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٢٢ ب .
ـ أنباء الغمر ، ورقة ١١٥ ا .
(٢) ـ السلوك ، ورقة ١١ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٢٥ ب .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١١٥ ا .
(٣) ـ السلوك ، ورقة ١٥ ب .
ـ عقد الجمان ، ورقة ٢٨ ا .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١١٥ ا .
(٤) ـ السلوك ، ورقة ١١٦ ا .
ـ انباء الغمر ، ورقة ١٦١ ب .

الظلم والعسف وهزته اريحية الجور والعسف ، ولم يختر إلا ترويج أمره الفاسد . فلما رأيت امعانه على ذلك ، خرجت من عنده وفي خاطره أن أمره قد نفذ وتم . وجئت إلى الأمير جكم ، فإنه كان من أعز أصحابي ، وحكيت له ما جرى من الأمر العظيم ، وأشهدته على بأني عزلت نفسي من الوظيفة حتى لا أباشر الأمور السخيفة . فلما بلغ المذكور الخبر بذلك أخذه الحنق على ذلك ، وطلب مَنْ يوليه لأهل هذا الشأن ، فلم يجد أحداً يقبل هذا الظالم والخسران غير تقي الدين بن المقريزي الذي كان قد تولى الحسبة في أيام الظاهر من قبل ذلك ، فخُلع عليه بذلك في يوم الجمعة ١٧ من الشهر المذكور[١]

غير أن المقريزي لم يستمر طويلاً في وظيفة الحسبة ، ففي ١٠ شعبان من نفس العام صُرف منها ، واستقر فيها جمال الدين الطنبدي بسفارة الأمير سودون من زاده[٢] .

وفي ١٤ شوال من نفس العام أيضاً ، عُزل الطنبدي وأُعيد إليها شمس الدين محمد البجاسي ؛ وهو أحد من تولوا هذه الوظيفة من قبل[٣] .

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ استقر العيني في حسبة القاهرة بسفارة الأمير جكم وعُزل منها البجاسي[٤] .

وفي ٧ جمادى الآخرة من نفس العام أُعيد البجاسي إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العيني ؛ وكان ذلك بسفارة يلبغا السالمي[٥] . وحدث هذا بعد عودة الناصر فرج من الشام فاراً أمام تيمورلنك ، وهي الفترة التي شهدت الاستعدادات لملاقاة تيمورلنك . ومن أجل ذلك أُطلقت يد يلبغا السالمي

---

(١) عقد الجمان ، ورقة ١٢٩ ا .
(٢) ــ السلوك ، ورقة ١٩ ا (بمال وعد به) .
ــ عقد الجمان ، ورقة ١٣٢ ا .
(٣) ــ السلوك ، ورقة ٢٠ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٣٣ ب
(٤) ــ السلوك ، ورقة ٢٤ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٤٢ ا .
(٥) ــ السلوك ، ورقة ٢٧ ب .
ــ عقد الجمان ، ورقة ٤٣ ب .
ــ انباء الفمر ، ورقة ١٧٤ ا .

الأستادار ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في ذكر ما لجأ إليه يلبغا السالمى من وسائل ومصادرات من أجل جمع المال [١] .

وعلى هذا النحو تستمر المصادر في الحديث عمن ولى وظيفة الحسبة ؛ فلم يكد يعين محتسب حتى يصرف ويستقر مكانه محتسب آخر بسفارة أقوى الأمراء نفوذاً . وهذا ما حدث في ٢٦ شعبان ٨٠٣ ، و١٨ ربيع الأول ٨٠٤ ، و١٠ رمضان ٨٠٥ ، ومحرم ٨٠٦ ، و٦ ربيع الأول ٨٠٦ ، و٧ ربيع الآخر ٨٠٦ ، وأول جمادى الأولى ٨٠٦[٢] .

وفي شوال ٨٠٧ يذكر المقريزى أنه أُعيد إلى حسبة القاهرة مكرهاً بعد مراجعة السلطان ثلاث مرات[٣] . غير أن العينى لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يتشفّى من خصمه ، فيخبرنا بأنه سرعان ما خُلع منها في ٢١ ذى القعدة ، أى بعد أيام من توليته لها[٤] . وليس ثمة شك في أن تولية المقريزى الحسبة على النحو الذى أشار إليه — ونحن لانشك في صدق روايته — ثم مفاجأته بقرار العزل بعد أيام ، جعلته يزهد في تولى الوظائف العامه ، وكان هذا آخر عهده بها .

ويكفى لإبراز مدى ماآلت إليه وظيفة الحسبة من مهانة في ذلك الوقت أن أحد المحتسبين ، وهو محمد بن شعبان الذى تولى الحسبة في ١٠ رمضان ٨٠٥ ، بلغ حالة من الفساد لدرجة أن والى القاهرة ضربه بحضرة الناس في

---

(١) انظر :
— السلوك ، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب — ٢٨ ب .
— عقد الجمان ، ورقة ١٤٣ .
— انباء الغمر ، ورقة ١٧١ ب ، ١٧٣ ب.
— النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص٤٧ ، ٦٩—٧٢
WIET : L'Egypte arabe, pp. 526-532.

(٢) انظر :
— السلوك ، ورقة ١٢٩ ، ٣٣ ب ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ٤٠ ب .
— عقد الجمان ، ورقة ٥٣ ب .
— انباء الغمر ، ورقة ١٨٩ ب ، ٢٠٥ ب .

(٣) — السلوك ، ورقة ٤٨ ب .

(٤) — عقد الجمان ، ورقة ٧٠ ب .

دار الدوادار الكبير أربعين عصاً لسوء سيرته[١] . ولا يختلف مَنْ ترجم لحياة هذا المحتسب على سوء سيرته ؛ فيذكرون عنه أنه « كان عرياً من الفضائل ، وأنه ولى الحسبة زيادة على عشرين مرة بالبذل ، بحيث كان يتبجّح بذلك ويفتخر به ، مع أن المؤيّد ضربه مرة (أخرى) على رجليه وألزمه بعدم السعى فيها[٢] . »

* * *

وشهدت الفترة بين عامى ٨٠٦ — ٨٠٩ أخطر سنوات المجاعة الطويلة المتقطّعة التى حلت بمصر منذ سنة ٧٩٦ ؛ فقد صاحب هذه المجاعة انتشار الوباء .

في هذه السنوات الثلاث مرت الحسبة بتطور جديد انزلق بها نحو الهاوية ، فأصبح توليها لايتم إلا عن طريق البذل . ففى حديثه عن سنة ٧٠٩ يقول ابن حجر ، « ووقع في هذه السنة ، والتى بعدها ، والتى قبلها ، من تلاعب الجهلة بمنصب الحسبة ما يُتعجب من سماعه ، حتى أنه في الشهر الواحد ثلاثة ثلاثة أو أربعة . وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرّراً ، فكان مَنْ قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويُخلع عليه . ثم يقوم آخر يزن ويُصرف الذى قبله ، واستقر هذا الأمر في أكثر دولة الملك الناصر فرج[٣] . »

فإذا ما انتقلنا إلى سلطنة المؤيّد شيخ ، نجد أن الظاهرة لم تتوقف بل نجد أنها أصبحت أمراً مقرّراً طوال بقية عصر المماليك . وتسعفنا المراجع — طوال هذه الفترة — بعدد كبير من الأمثلة نذكر بعضها على سبيل المثال .

ففى ٢٨ ذى الحجة سنة ٨١٥ عُزل صدر الدين أحمد بن العجمى عن الحسبة بابن شعبان ، وقد وعد بخمسمائة دينار ليقوم بها ، كما التزم أن يحمل كل شهر مائة دينار[٤]. غير أنه لم يستطع الوفاء بما التزم به ؛ ففى محرم من

(١) — السلوك ، ورقة ١٣٨ .
(٢) — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٧٤ — الضوء اللامع ، الجزء السابع ، رقم ٦٧٥
(٣) — انباء الفمر ، ورقة ٢٣٨
(٤) — السلوك ، ورقة ١٠٨١ .
— انباء الفمر ، المخطوطة رقم ١٦٠٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٣٤ .

السنة التالية ، اشتد الأمر عليه ، وكان قد تأخر عليه مبلغ ألف دينار ، فباع موجوده وأورد نحو ثلثمائة دينار[١] .

واستقر الأمر على ذلك أيضاً في سلطنة الأشرف برسباى ، لدرجة أن العينى لم يسلم من ذلك . وكان العينى مقرباً لدى برسباى ، فقد كان يسامره ليلاً ليترجم له باللغة التركية ماكتبه في تاريخه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، وليشرح له غوامض الفقه والشريعة . ففى شعبان ٨٢٥ أضيفت إلى العينى — وكان يلى نظر الأحباس — حسبة القاهرة ، عوضاً عن صدر الدين أحمد بن العجمى ، كما أضيف إليه أيضاً النظر في الأحكام الشرعية[٢] . والجديد في هذه الحالة أنها اقترنت ببذلٍ من جانب العينى لسلفه ابن العجمى، كنوع من الترضية له وحتى لايتطلع إلى الحسبة بعد ذلك . فيذكر ابن حجر أن المحتسب كان يتقاضى دينارين في اليوم من مال الجوالى نظير القيام بمهام وظيفته ، فنزل العينى عن دينار منهما لابن العجمى ، واكتفى هو بالدينار الثاني[٣] .

ولم تختف هذه الظاهرة طوال الفترة المتبقية من عصر المماليك ؛ إذ نجد المراجع ظلت تشير إلى تولى وظيفة الحسبة عن طريق البذل . ومن أمثلة ذلك ما حدث في شوال ٨٥٢ في سلطنة الظاهر جقمق[٤] .

ومنها ما حدث في أوائل سلطنة الأشرف اينال . ففى ٦ ذى القعدة ٨٥٧ خُلع على الشيخ على الخراساني المحتسب خلعة الاستمرار . وسبب ذلك أن شخصاً من الأوباش سعى في الحسبة بثلاثة آلاف دينار ، ومال السلطان لتوليته ، فتكلم معه بعض أرباب الدولة باستمرار الشيخ على الخراساني على بذل الفين[٥]. غير أنه لم يمر على ذلك سوى ثلاثة أسابيع حتى قُبض على

---

(١) ــ السلوك ، ورقة ١٠٩ ا .
ــ انباء الغمر ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٩ ب .
(٢) ــ السلوك ، ورقة ٣٥٢ ا .
ــ عقد الجمان ، ورقة ١٥٤ ب .
(٣) انباء الغمر ، ورقة ١٢٠ ب .
(٤) ــ التبر المسبوك ، ص ٢٢٠
(٥) ــ حوادث الدهور ، ص ١٩٦

المحتسب وحُبس عند الخازندار بسبب مال طلبه السلطان منه . وبعد يومين عُزل الشيخ على ، واستقر مكانه آخر ببذل نحو ثلاثة آلاف دينار[١] .

ويبدو أن الشيخ على الخراساني نجح في أن يعود إلى وظيفة الحسبة ، بعد أن بذل مبلغاً من المـال يفوق ما بذله سلفه . ففى ١٥ جمادى الآخرة ٨٥٩ تعود المراجع إلى الحديث عن عزله منها مرةً أخرى ، وتولية أيّاها عبد العزيز بن محمد الصغير نقيب الجيش ، مضافةً لنقابة الجيش ، بمال بُذل في ذلك[٢] .

وإذا ما رجعنا إلى ترجمة حياة الشيخ على الخراساني لعرفنا منها مدى تهافته على تولى الحسبة ، ومدى ما آل إليه أمرها بما استحدث فيها من مظالم. ففى هذه الكلمات يُترجم له أبو المحاسن ، « في سنة ٨٦١ توفي يار على بن نصر الله العجمى الخراساني الطويل محتسب القاهرة بطّالاً ... فإنه لما ولى حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة وفتح له أبواب الظلم والأخذ ، فما عفّ ولاكفّ وجدّد في الحسبة مظالم تُذكر به ، وإثمها وإثم من يعمل بها عليه إلى يوم القيامة . وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها ، فانظر إلى حال هذا المسكين الذى ظلم نفسه وظلم الناس. . . .[٣] »

ومنها مايذكره لنا أبو المحاسن بتاريخ ٦ صفر ٨٦٥ . ففى هذا اليوم استقر على بن اسكندر والياً للقاهرة ، واستقر تنم من بخشابش الظاهرى الخاصّكى ، المعروف برصاص ، في حسبة القاهرة عوضاً عن على بن اسكندر وكلاهما ولى بالبذل . ثم يعلّق على ذلك بقوله ، « أن تنم هذا أول تركى ولى الحسبة بالبذل ، ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لا قديماً ولا حديثاً[٤] »

ويعفينا ابن إياس من تتبّع أخبار المحتسبين فيما ورد عنهم في المصادر المعاصرة من إشارات متفرقة ، أو في تراجم حياتهم . فيذكر لنا ما استقر

---

(١) ــ حوادث الدهور ، ص ١٩٨
(٢) ــ حوادث الدهور ، ص ٢٣٠
(٣) ــ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٦١٠ ــ ٦١١ .
(٤) ــ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢

عليه أمر الحسبة بمناسبة تولية قايتباى عرش السلطنة ، فيقول : « في شهر رجب سنة ٨٧٢ نُودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التي تتعلق بالمحتسب ، وهي نحواً من ألف دينار في كل شهر. فبطُل ذلك مدةً يسيرةً ، ثم عاد بعد ذلك كل شيءٍ على حاله[١] . »

وأما في عهد الغورى فقد ارتفع المبلغ المقرّر مشاهرةً على مَنْ ولى وظيفة الحسبة إلى خمسة عشر ألف درهم[٢] .

وفيما يختص بالاسكندرية نجد أن المبلغ المقرّر على الباعة لجهة الحسبة بها ، في كل شهر ، بلغ في سنة ٨٣٩ ثلاثين ألف درهم . وكان ذلك المبلغ يُحمل إلى ديوان النيابة ؛ وذلك أن حسبة المدينة أُضيفت إلى نائبها منذ أن تولى النيابة بها في نفس هذا العام الأمير غرسَ الدين خليل بن شاهين الظاهرى صاحب كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك »[٣] . وعلى الرغم من أن الأمير غرس الدين قد أمر بإبطال ذلك المقرّر ، ونَقَشَ المرسوم الخاص بذلك في رخامات ثبّتها على أبواب البلد[٤] ، فقد ظل الأمر معمولاً به حتى السنوات الأخيرة من عصر المماليك .

ففي سنة ٩٢٢ أصدر السلطان طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، مرسوماً يقضى بإبطال مقرّر الحسبة بثغر الاسكندرية ، وهو — كما جاء في المرسوم — في كل شهر سبعة آلاف وخمسمائة درهم[٥] .

وتناقص المقرّر مشاهرةً من ثلاثين ألف درهم في سنة ٨٣٩ إلى سبعة آلاف وخمسمائة درهم في سنة ٩٢٢ له دلالته الكبرى . فهذا التناقص يفسر

---

(١) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٩٣
(٢) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثالث ، ص ١٨
(٣) — المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ ا .
— فى سنة ٨٣٩ تولى الأمير غرس الدين خليل بن شاهين وظيفة النائب والحاجب والمشدّ بالاسكندرية ، ويرجع ذلك الى أنه كان حماً للسلطان برسباى — انظر :
الدكتور زياده : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤
(٤) — انباء الغمر ، ورقة ٢١٢ ب .
(٥) — انظر المراسيم المرفقة بهذا البحث ، المرسوم رقم ١

ما آلت إليه الحالة الاقتصادية بثغر الاسكندرية في الفترة الأخيرة من عصر المماليك ، وخاصةً تلك التي أعقبت تحول تجارة البهار وغيرها من سلع الشرق الأقصى من أسواق مصر والشام إلى أسواق لشبونة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . فالمؤرخ ابن إياس يصف لنا الحالة بالمدينة بمناسبة زيارة السلطان الغورى لها في سنة ٩٢٠ بقوله ، « لم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحدٌ من أعيان التجار ، لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجَوْر القبّاض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العُشر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب[١] »

* * *

وأما الظاهرة الثالثة التي أدت إلى انحلال أمر الحسبة وانهيارها فهى تولى أمراء المماليك لهذه الوظيفة الدينية .

ففى شهر ربيع الآخر سنة ٨١٦ ولى الحسبة الأمير منكلى بغا الحاجب ، الملقّب بالفقيه ، مضافاً إلى الحجوبية[٢] . وربما كان لهذا اللقب صفة من الحقيقة ؛ الأمر الذى دعا المؤيّد شيخ إلى الخروج عن التقليد المتّبع حتى ذلك العام وهو أن يتولى الحسبة أحد الفقهاء المتعممين .

غير أن هذا الأمير لم يستمر في الجمع بين الوظيفتين سوى ثلاث سنوات ، ففى المحرم سنة ٨١٩ صُرف عن الحسبة وأُعيد العينى إليها[٣] . وكانت البلاد قد حل بها الوباء في العام الماضى واستمر حتى هذا العام (٨١٨ — ٨١٩) ، وأدى هذا الوباء — فضلاً عن كثرة الموتى — إلى ارتفاع الأسعار والغلاء الشديد . وربما يكون هذا الأمير قد فشل في أداء مهام وظيفته في هذه الظروف غير العادية .

---

(١) — بدائع الزهور ، طبعة استانبول ، الجزء الرابع ، ص ٤٢٣ — ٤٢٤

(٢) — صبح الأعشى ، جزء ١١ ، ص ٢١٠
— انباء الغمر ، ورقة ٤٠ ب .

(٣) — السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٢٩٨ ا .
— انباء الغمر ، ورقة ١٦٢ ا .
— عقد الجمان ، ورقة ١١٥ ا .

وفي عهد برسباى تولى أرباب السيوف هذه الوظيفة مرتين . ففى المرة الأولى صُرف العينى عن الحسبة وعلى كره منه ، بل على كره من السلطان أيضاً ؛ وذلك أن الأمر اقتضى تعيين أحد الأمراء بدلاً منه . فقد تجمهرت العامة حول العينى بسبب قلة الخبز في الأسواق يوم ٧ ذى الحجة سنة ٨٢٨ وصاحت عليه ، فبادر بالصعود إلى القلعة وهو خائف من رجم العامة له وشكاهم للسلطان ، وكان يختص به . فحنق السلطان على العامة وأمر بالقبض على عدد منهم . ولم يكتف بذلك ، إنما أمر بقطع أناملهم وآذانهم وسجنهم ليلة بالقلعة ، ثم أفرج عنهم في اليوم التالى ؛ وكان عددهم ٢٢ رجلاً [١].

ويبدو أن هذا الإجراء العنيف من جانب السلطان لم يؤدى إلى زجر العامة ، ولذلك فإنه في يوم ٥ محرم من السنة التالية خلع على الأمير إينال الششماني ، أحد أمراء العشرات ، في حسبة القاهرة عوضاً عن العينى [٢] .

ولكن السلطان لم يتخذ أى إجراء لتوفير الغلال ، كما أن الأمراء من جانبهم استغلوا الفرصة وخاصةً بعد أن بلغهم شدة الغلاء ببلاد الصعيد ، وأنها لا يكاد يوجد بها قمح ولا خبز . فرفض الأمراء فتح شونهم لبيع الغلال لكى يرتفع السعر ، كما أن السلطان منع أن يُباع من حواصله قمحٌ طمعاً في زيادة السعر ، أو كما قال المقريزى ، « أمسك خزّان القمح ما عندهم منه ، وأمّلوا أن يبيعو البُرّ بالدُرّ [٣] » .

وكان ذلك بوادر أزمة حادة من تلك الأزمات التى تعودتها مصر نتيجة انخفاض فيضان النيل وما يترتب عليه من جدب ومجاعة ووباء . ففى سنة

---

(١) ــ السلوك ، ورقة ٣٦٩ ا .
ــ انباء الغمر ، ورقة ١٤٤ ب .
ــ كانت هذه هى الحادثة الثالثة التى تجمهر فيها الشعب وعبر عن احتجاجه بسبب قلة الخبز فى الأسواق . وقد ساق المقريزى فى كتابه « اغاثة الأمة » حادثتين مماثلتين ، أولهما فى سنة ٣٣٨ فى عهد الدولة الأخشيدية ، وثانيهما أثناء الغلاء الشديد فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ــ انظر اغاثة الأمة ، ص . و . (المقدمة) ص ١١ ، ٢٥ ــ ٢٦

(٢) ــ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٥٩٥
WIET : Les biographies du Manhal Safi, Le Caire 1932, No. 616.

(٣) ــ السلوك ، ورقة ٣٧١ ب .

٨٣٠ جاء الفيضان منخفضاً الأمر الذى أدى إلى حدوث القحط والجدب والغلاء . وبعد ذلك بسنتين (سنة ٨٣٢) تكررت نفس الظاهرة بنتائجها المعروفة ؛ غير أنه زيد عليها انتشار الوباء في السنة التالية (٨٣٣)[١] .

ولننظر ما فعل هذا الأمير في هذه الظروف ؛ ظروف المجاعة والوباء الذى يحصد المئات من أفراد الشعب كل يوم . إنه لم يفعل شيئاً سوى المحافظة على مصالح سيده وسلطانه . فقد منع كل مَنْ ورد بغلّة إلى ساحل مصر وبولاق من بيعها وتشدد في ذلك فامتنعوا ، ثم أخذ في بيع الغلال السلطانية كل أردب منها بثلثمائة وستين درهماً . وبعد أن انتهى من ذلك أذن لهم في بيع غلالهم ، وكان الطحانون قد تكفّوا بغلال السلطان ، ولذلك انحطّ سعر الغلال[٢] .

وما أن انحسر الوباء وعادت الأحوال الطبيعية إلى البلاد حتى بادر السلطان بإعادة العينى إلى الحسبة مضافاً لما بيده من نظر الأحباس[٣] .

وفي ظروف مماثلة لجأ برسباى ، للمرة الثانية ، إلى تعيين أحد الأمراء في هذه الوظيفة . وكان ذلك في سنة ٨٤١ عندما تعرضت البلاد ، للمرة الثانية في عهده ، للوباء . ففى رمضان من ذلك العام خلع السلطان على الأمير دولات خجا بن عبد الله الظاهرى وولاه الحسبة عوضاً عن أحد المتعممين . وكان دولات خجا قد عُرف بقسوته وشدته أثناء توليه وظيفة والى القاهرة . إذ يُروى عنه أنه أطلق عدة من المحابيس أرباب الجرائم ، وهدّد من أمسكه منهم ثانياً بالتوسيط ، فوسّط جماعةً منهم عندما ظفر بهم . غير أنه لما كثر ظلمه عزله السلطان من ولاية القاهرة . ولما حل الوباء بالبلاد في هذه السنة ، رأى السلطان أنه في حاجة إليه ، فخلع عليه في وظيفة الحسبة . إلا أن أيامه فيها لم تطل ، إذ أنه لم يكن يخشى الله ، فأخذه الموت بالطاعون في أول ذى القعدة من نفس العام[٤] .

---

(١) انظر القائمة السابقة .
(٢) السلوك ، ورقة ١٣٩٦ .
(٣) المرجع السابق ، والورقة المشار اليها سابقا .
(٤) ــ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٧٦١
ــ الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٨٣٠ .

ويبدو أن هذا الإستثناء الذى لجأ إليه المؤيّد وبرسباى في ظروف غير عادية ما لبث أن أخذ يزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو القاعدة . وفي ذلك يقول الخالدى ، « وكانت ولاية الحسبة منحصرةً في المتعممين ، ثم صار يتولاها أرباب السيوف غالباً[١] »

فابتداءً من سنة ٨٦٥ لم يعد يعين في هذه الوظيفة إلا أحد الأمراء . وانطبق على الأمراء ما كان ينطبق على المتعممين ، ممّن كانوا يتولون هذه الوظيفة من قبل ؛ أى أنهم لم يكونوا يتولونها إلا بالبذل . ففى هذه السنة تولى وظيفة الحسبة الأمير تنم من بخشابش الظاهرى ، وهو أول تركى تولى الحسبة بالبذل[٣].

وما استقر عليه الأمر أخيراً بالنسبة لوظيفة الحسبة لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر الصراع الطبقى الذى شهدته مصر المملوكية . فالمماليك في تكالبهم على جمع المال ، قد درجوا على منافسة العلماء ورجال الدين في تولى الوظائف الدينية ، وخاصة تلك التى تمكنهم من الثراء ، مثل وظيفة الحسبة ، ووظيفة ناظر الوقف . ولولا ماهم عليه من جهل بالشريعة لنافسوهم في تولى وظيفة القضاء[٣] . وقد عبّر السبكى ، عن هذه الحالة ، بقوله ، « من قبائح الأمراء استكثارهم الأرزاق وإن قلّت على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق وإن كثرت على أنفسهم . ورأيت كثيراً منهم يعيبون على الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة . ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده . أفما يستحى هذا الأمير المسكين من الله[٤] » .

---

(١) ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ ا .
ــ هذه الملاحظة التى أبداها الخالدى عن وظيفة الحسبة ، تجعلنا نشك فى أنه ألف كتابه فى منتصف عهد برسباى تقريبا ، أو بعد سنة ١٤٣٢ ، كما يرجح الدكتور زياده (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤ ــ ٢٥) . اذ أنه حتى عهد برسباى لم تكن الحسبة يتولاها أرباب السيوف غالبا .

(٢) ــ النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢ ، ٧٨٨ (كان هذا الأمير قد سبق له أن تولى وظيفة الحسبة فى أوائل سلطنة الظاهر جقمق ، ولكن ليس عن طريق البذل) .

(٣) DARRAG : L'acte de Waqf de Barsbay, éd. Inst. Fr. Arch. Or. du Caire, Le Caire 1963, p. 20 et suiv.

(٤) ــ معيد النعم ومبيد النقم ، طبعة Myhrman ، ليدن ١٩٠٨ ، ص ٦٨ ــ ٦٩

وفي الفترة الأخيرة من عصر المماليك دخل الصراع الطبقي بين المماليك والفقهاء مرحلة نهائية ؛ كان الإنتصار فيها لطبقة المماليك . وهذا ما نلمسه فيما تذكره المصادر المعاصرة من إشارات تبرز ذلك الصراع . ففي سنة ٨٥٤ قام المماليك الجلبان بمنع المتعممين من ركوب الخيل وركوب البغال والحمير ، ما عدا كاتب السر ونائبه ، وناظر الجيش وناظر الخاص ، وناظر الإسطبل ، والوزير ، والاستادار ، وكاتب المماليك[١] .

وفي سنة ٨٥٧ كثر إلحاح المماليك على السلطان في طلب اقطاعات الفقهاء والمتعممين[٢] .

وفي السنة التالية ثار المماليك على الفقهاء والمتعممين فضربوا منهم خلائق وأخذوا خيولهم . وبذلك أشاعوا جواً من الإرهاب ضدهم ، فلم يبق بالقاهرة متعممٌ إلا وتحاشى ركوب الخيل[٣] . وما حدث في هذه السنة تكرر حدوثه في سنة ٨٦٠[٤] .

وكانت هذه الظاهرة موضع ملاحظة الرحالة الأجانب ؛ ومن هؤلاء الذين سجلوا ما رأوه — في هذا الصدد — الرحالة الألماني فيلكس فابر Felix Faber أثناء إقامته بالقاهرة في سنة ١٤٨٣[٥] .

* * *

وكانت وظيفة الحسبة في بلاد الشام من الوظائف الدينية الرئيسية . وكان تعيين المحتسب في النيابات الكبرى ، كنيابة دمشق ، ونيابة حلب من قبل السلطان ، وفي النيابات الصغرى من قبل النواب[٦] .

---

(١) — النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩٨
— حوادث الدهور ، ص ٦٨
— التبر المسبوك ، ص ٣١٤
(٢) حوادث الدهور ، ص ١٦٧
(٣) حوادث الدهور ، ص ٢٠٥
(٤) حوادث الدهور ، ص ٢٧٨
(٥) THENAUD : Le voyage d'outre-mer ; éd. Schefer, Paris 1884, Introduction, p. XXXXIV.
(٦) — صبح الأعشى ، جزء ٩ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، جزء ١٢ ص ٧
— المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٥ ا .

ومرت وظيفة الحسبة في نيابات الشام بنفس الأدوار التى مرت بها هذه الوظيفة في مصر منذ بداية القرن التاسع ، وانتهت هناك إلى ما انتهت إليه في مصر من فساد أمرها نهائياً . فقد أصبح لا يتولاها أحدٌ إلا عن طريق البذل ، والإلتزام بدفع مقرَّر شهرى أثناء مدة ولايته لها ، كما أصبحت ولايتها قاصرةً على أرباب السيوف[١] .

وإذا كانت المصادر المعاصرة لا نجد فيها عن أحوال بلاد الشام إلا الشيء اليسير ، الذى لا يساعدنا على تتبع دراسة الحسبة في بلاد الشام كما فعلنا بالنسبة لمصر ؛ فإن بلاد الشام قد حفظت لنا — نظراً لطبيعتها الجبلية — الكثير من المراسيم المملوكية التى تتعلق بمختلف أنواع النشاط البشرى[٢] . ومن هذه المراسيم استطعنا أن نستخرج عدداً لا بأس به يوضح لنا ما آلت إليه وظيفة الحسبة في نيابات الشام . بل إن هذه المراسيم توضح أكثر من جميع النصوص التاريخية التى سقناها فيما يختص بمصر مدى ما وصلت إليه الحسبة من فساد ، والدور الذى لعبته — بعد أن فسد أمرها — في هدم الحياة الإقتصادية في بلاد الشام .

وسيجد القارئ في نهاية هذا البحث مجموعة من المراسيم الخاصة بالحسبة ، أُستخرجت نصوصها من المصادر الأصلية التى نُشرت بها ، ومن هذه المراسيم مرسوم واحد خاص بالاسكندرية (سنة ٩٢٢) ، ومرسوم واحد

---

(١) المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٥ ا .
— يذكر الخالدى فى حديثه عن أرباب الوظائف الدينية بنيابة دمشق ، ومن بينها المحتسب ، أنه صار يتولاها فى زمانه جماعة من ارباب السيوف ، وولايته من الأبواب الشريفة .

(٢) عن مجموعة المراسيم المملوكية بالشام انظر :
WIET : Repertoire des decrets mamlouks de Syrie, dans Mélanges Réne Dussaud, T. I, Paris 1939.
———— : Décrets de date indéterminée, dans Mélanges Réne Dussaud, II, Paris 1939.
JANINE SOURDEL - THOMINE : Inscriptions Arabes de KARAK NUH, BEO, T. XIII, Damas 1951.
———— : Deeux decrets mamlouks de MARQAB, BEO, XIV, Damas 1954.
— الظاهرة العامة التى نخرج بها من دراسة هذه المجموعة الكبيرة من المراسيم هى أن تاريخ اصدارها يرجع — فى معظم الأحيان — الى بداية ونهاية عهود معظم سلاطين المماليك استجلابا لرضاء الله والناس . كما أنها تنتهى بصيغة تقليدية عامة ، وهى تقرير أبطال هذه المظلمة أو تلك ابطالا مستمرا على الدوام باقيا على مر الدهور والأيام ، وتنزل لعنة الله والناس أجمعين على كل من يجددها أو يسعى فى تجديدها .

خاص ببيروت (سنة ٨٠٦ أوسنة ٨٦٠) ، ومرسومان خاصان ببعلبك (سنة ٨٢٤ ، وسنة ٨٤٠) ، وأربعة مراسيم خاصة بدمشق (سنة ٨٠٢ أو سنة ٨٠٣ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٨) ومرسوم واحد خاص بطرابلس (سنة ٨٢١) .

وهذه المراسيم تقرر إبطال المشاهرة ، أو حق الشهر الذى كان يجبى لصالح المحتسب من بعض التجار وأصحاب الحرف والصنائع كالخبّازين ، والطحّانين ، وأرباب المعايش ، والصنائعية ، والدبّاغين ، والمغسلين والحمّالين لأموات المسلمين ، وعلى سكان وقف الجوامع والتجار والمتسبّبه ، وعلى الأسواق عامة[١] . وما من شك أن ماورد في هذه المراسيم ، وإن كان لايشمل جميع التجار وأصحاب الحرف والصنائع ، إلا أنه يعطينا صورة كافية عما آل إليه أمر الحسبة ، وكيف أنها أصبحت قيداً كبيراً على النشاط التجارى والصناعى .

وإذا ما أضفنا إلى هذه الصورة العامة التى خرجنا بها من دراسة الحسبة أنه كان لكل محتسب أعوان أو نواب[٢] يعاونونه أو ينوبون عنه في أداء مهام وظيفته التى تشمل القطر كله أحياناً (كما هو الحال في مصر) ، والنيابة كلها (كما هو الحال في الشام) ، لأدركنا مدى الضرر الذى نجم عن فساد أمرها على هذا النحو ، ومدى نتائج ذلك على الحياة الاقتصادية بالبلاد .

وإذا كان هذا هو حال المحتسب ونوابه ، فمن المؤكد أن الفساد قد امتد إلى كل من له صلة بالإشراف على الأسواق وعلى أصحاب الحرف والصنائع . ومن هؤلاء « شادّ الأسواق[٣] » و « ناظر الأسواق[٤] » و« معلّم الأسواق[٥] » و« والدّلالين وكبير الدّلالين[٦] » و« العريف [٧]»

(١) انظر مجموعة المراسيم المرفقة بهذا البحث .

(٢) يعرف هؤلاء الأعوان فى بلاد الشام باسم « نظّار الحسبة » ــ انظر مرسوم بعلبك المؤرخ فى سنة ٨٤٠ هـ ــ المرسوم رقم ٨

(٣) زبدة كشف الممالك ، طبعة راقيس ، ص ١١٥

(٤) GAUDEFROY-DEMOMMYNES : La Syrie à l'epoque des Mamlouks, Paris 1923, p. LXXIII, n. 5.

(٥) ورد هذا المصطلح فى ترجمة حياة الأمير قائم المؤيدى (انظر المنهل الصافى ، المخطوطة رقم ٢٠٧٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٣ ب ــ ١٤) .

(٦) ورد هذا المصطلح فى ترجمة الأمير خير الذهبى (انظر الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٧٨٨) .

(٧) اغاثة الأمة ، ص ١٨ (وكان فى كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم) .

مراسيم الحسبة

(١)

الاسكندرية[١]

(١) برز المرسوم من المقام الش[ر] ي[ف]

(٢) السلطان المالك الملك [الأشرف]

(٣) ابو النصر طومان باى سلطان

(٤) الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة

(٥) والمشركين محيي العدل في

(٦) العالمين عز نصره ان يبطل

(٧) ما على مقرر الحسبة بثغر الاسكندرية

(٨) المحروسة ما هو في كل شهر

(٩) سبعة آلاف وخمسمائة درهم

(١٠) بتا [ريخ] سنة اثنين وعشرين وتسعمائة

---

(١) Halil Etem Eldem : Melik Tumanbay, p. 6.

(٢)

دمشق (الجامع الأموي)[١]

(١) بسمله : رُسم بالأمر العالىّ

(٢) المولوىّ الأميرىّ الكبيرىّ المالكىّ المخدومىّ

(٣) السيفىّ سودون الدوادار نائب السلطنة الشريفة

(٤) بالشام المحروسة أعزّ الله أنصاره

(٥) أن يُنقش بإبطال ما كان على المغسّلين

(٦) والحمّالين لأمو[ا]ت المسلمين لنائب الحسبة الشريفة .

(٧) من الجهة المذكورة حسب المرسوم الشريف

(٨) السلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ تغمده

(٩ — ١١) [الله برحمته ورضوانه ومن سعى بإعادتها أو أعان عليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وسطرت هذه الحسنة في صحائف مولانا السلطان خلّد الله ملكه وجعل الأرض ملكه وآله ؟ ؟ ؟]

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 37, pp. 5-6, 7.
— يرجح سوفاجيه أن هذا المرسوم صدر فى سنة ٨٠٢ أو فى سنة ٨٠٣هـ

(٣)

دمشق (الجامع الأموى)[١]

(١) بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) لما كان بتاريخ نهار الجمعة المبارك ثامن عشرين

(٣) شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثمان مائة برز المرسوم

(٤) الكريم العالى المولوى الكافلى السيفى قانباى

(٥) الحمزاوى الاشرفي كافل المملكة الشريفة

(٦) الشامية أعزّ الله انصاره بابطال المقرّر للحسبة

(٧) على الاسواق والطواحين وغيرها بدمشق

(٨) من التجار والوصائفية والصنائعية والمتسببة وغيرهم

(٩) وأن لايؤخذ منهم درهم الفرد لامشاهرة

(١٠) ولا قدوم وملعون من يجدده

(١١) او يسعا في تجديده وعليه لعنة الله والملائكة

(١٢) والناس اجمعين والحمد لله وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

---

(١) Sobernheim : Inschriftliche wiirtschafts und verwaltung — Verordnungen der mamluken - sultane aus Damaskus. Oppenheim Festschrift, Berlin 1923, p. 121, no. VIII.

(٤)

دمشق (الجامع الأموى)[١]

(١) بسملة . لما كان بتأريخ نهار [ا] لجمعة عشرين

(٢) ربيع الآخرة سنة اربع وستين وثمانمائة رسم المقر الكريم

(٣) العالى المولوى السيفى جانم الأشرفي كافل المملكة الشريفة الشامية

(٤) أعز الله انصاره بإبطال هذه المظلمة المعروفة بمشاهر [ة] الحسبة ومشاهرة

(٥) الدباغة التى يرسم البشمقدارية[٢] عن المسلمين وأهل الذمة القاطنين

(٦) بدمشق المحروسة وضواحيها وأرباب المعائش والحرصاى (هكذا) وأن

(٧) لا . . . شئ وذلك ما قيمته درهم فرد حسب ما رسم واستمرار ذلك

(٨) على ممر الليالى والأيام رغبة فيما قاله الصادق المصدّق

(٩) عليه أفضل الصلاة والسلام من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. II, no. 12, pp. 41-42.

(٢) البَشْمَقْدارية أو البَجْمَقْدارية ومعناها المماليك من خاصة السلطان المكلفين بحمل حدائه اذا ماخلعه وحفظ أحذيته . وكان يوجد من بين أصحاب الوظائف أربعة من الخاصّكية مكلفين بهذه المهمة . وهذا المصطلح مشتق من الكلمة التركية « بَشْمَق » ومعناها : صندل ، والكلمة الفارسية « دار » . انظر :

Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes, I, p. 51.

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦

(١٠) عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر [من]

(١١) عمل بها إلى يوم القيامة فليمتثل ما رُسم به كل من يتولا الحسبة والبشمقدارية

(١٢) ومن خالف ذلك أو أعاده فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

(١٣) وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

(٥)

دمشق (الجامع الأموى)[١]

(١) بسمله . بتأريخ شهر شعبان المكرّم سنة ثمان وستين وثمانمائة برزت

(٢) المراسيم السلطانية الملكية الظاهرية أبو سعيد خشقدم أعزّ الله سلطانه

(٣) ونصره الى مولانا ملك الأمرآء كافل المملكة الشامية المحروسة والأمير

(٤) حاجب الحجاب بها و[ال] سادة القضاة والأمرآء أعز الله بهم الدين بأن يتقدموا

(٥) بازالت (هكذا) المنكرات وإبطال المحرمات والقاذورات ومحو آثارها وابطال

(٦) الحمامير واراقت (هكذا) الخمور وإخراج بنات الخطأ من دمشق الحصينة وابطال

(٧) ما على الحسبة الشريفة من المال المقرر الذى يُسمّا (هكذا) مشاهرة وما [أ] حدث على البضائع المجلوبة

(٨) إلى دمشق من التحجير والكلف وتمكين أرباب البضائع من بيع بضائعهم اين شاءوا

(٩) واستمرار ابطال المكوس وفروعها التى ابطلت في الايام الظاهرية

(١٠) جقمق طيب الله ثراه بأجمعها ومنع مقدم المكارية واتباعه من

(١١) التعرض إلى أبّان[٢] فلاحى القرا (هكذا) والمزارع المجاورة بدمشق المحروسة وتطهير دمشق من سائر

---

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 42, pp. 18, 23.

(٢) — اى قبانى .

(١٢) المنكرات والمحرمات و(هكذا) ابتغا (هكذا) أجر هذا النداء بذلك (هكذا) في كل وقت ونقش ما

(١٣) رَسم به من ذلك في رخامة بباب الأمير حاجب الحجاب وتُحمل ببريديه إلى الجسا

(١٤) مع الأموى وتلصق على دعامة من دعائمه ليُعدّى بالعمل به (عن) سائر مكوس

(١٥) الاسلام وتكون هذه الحسنة جارية في [أل] صحائف الشريفة على الدوام فقو [ب] ل ذلك

(١٦) والحمدلله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

(٦)

بيروت (الجامع الكبير)[١]

(١) بتاريخ سنة ستة (أو ستين) وثمان مائة رسم الجناب العالىّ الجمالىّ أمير كو نائب السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة

(٢) أعزّ الله تعالى أنصاره بإبطال ماكان استحدث على الخبّازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة وهو في كل شهر على كل فرن خمسة دراهم وكان الخبا[زون]

(٣) [طلبوا منه] إبطال ذلك وأن لايؤخذ . . . . . ولا . . . . . ولايجدّد مظلمة وملعون بن ملعون من يعود[ها][أو] يجدد . . . . . .

(٤) أو يأخذ منهم شيئاً ولا يأخذ المحتسب إلا جامكيّته لاغير ومن يأخذ شيئاً غير جامكيّته تكون عليه لعنة الله واجبة الا (هكذا) [يوم الدين] .

---

١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 47, p. 32, 33-35.

(٧)

بعلبك (الجامع الكبير)[١]

(١) لما كان بتاريخ شهر جمادى الآخر من سنة أربع وعشرين وثمانمائة حضر سيدنا الشيخ الصالح الزاهد العابد سعد (؟) الله حسن بن

(٢) شمس الدين محمد الملكى (هكذا) بن أبو الحجّاج الأقصرى المصرى[ى] المعروف بشيخ السحيمية ناظر الحسبة الشريفة وعلى يده مرسوم

(٣) بإبطال حق الشهر الذى جدّد على الطحانين والخبازين والسوقة وغيرهم وألا يجدّد عليهم مظلمة وملعون ابن ملعون

(٤) من يجدّد عليهم مظلمة وذلك في أيام النائب خش قدم المظفّرى

---

(١) Sobernheim : Baalbek in Islamischen Zeit, Ergebnisse der ausgrabungen und untersuchungen in den yahren 1898 bis 1905, Band III, Berlin 1922, no. 30.

(٨)

بعلبك (الجامع الكبير)[١]

(١) الحمد لله ورد وقبّل بالحمد مرسوم شريف إلى دمشق المحروسة يتضمن بابطال ما كانوا يتسادّونه نظّار

(٢) الحسبة الشريفة بالشام واعمالها من السوقة وارباب المعايش من معلوم وغيره وأشهر وقوبل المرسوم

(٣) الشريف المشار اليه شرفه الله تعّ بالامتثال ثم ورد مرسوم مولانا ملك الأمراء أعزّ الله انصاره

(٤) الى بعلبك يتضمن ما ورد المرسوم الشريف المشار اليه بابطال جميع ما كان يتسادّونه

(٥) نظار الحسبة الشريفة من حق الشهر وقطع المصانعات[٢] عن بيان الظنون لما جاءت به المراسيم الشريفة

(٦) وذلك بتاريخ شهر ربيع الاول سنة اربعين وثمان مائة

---

(١) Sobernheim : Baalbek in Islamischen Zeit, no. 31.

(٢) يتردد ذكر مصطلح « قطع المصانعة » فى المراسيم المملوكية الخاصة بالشام ، ومعناه جباية أتاوة مالية نظير السماح بالقيام بعمل معين من الأعمال التى من المفروض أن يقوم بها أحد من أصحاب الحرف والصنائع — انظر :

Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 39, pp. 4-5, 8 et note.

(٩)

طرابلس (مدرسة السلطان المؤيد شيخ)[١]

(١) لما كانت بتاريخ العشر الأول من ربيع الأول سنة احد وعشرين [و] ثمان مائة ورد المرسوم الشريف السلطان الملك المؤيد أبو (هكذا) النصر شيخ بأن لا يؤخذ من سكان وقف جامع

(٢) العطّار للمحتسبين من قدومٍ ولا شهر ولا اذا مكروه استجلاب أدعية المصلّين ومن عمل به له أجره ومن خالف عليه غضب الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين آمين .

---

(١) Sobernheim : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Syrie du Nord, T. I, in MIFAO. XXV. Le Caire 1909, no. 47, p. 105.